النموذج الخارجي للمعارضة في الإسلام*

سماح أدريس

يُخبرنا ابن هشام المتوفّى في سنة ٢١٣ هـ. أنّ النبيّ محمّداً ﷺ كان يوزّع غنائم إحدى الحروب عَلى قومه حين تَصَدَّى له رجلٌ من قبيلةِ تميم مُنْكِراً عليه قِسْمَتَه ونازِعاً عنه صفةَ النبوّةِ قائلاً: «يا مُحَمّدُ! اتّقِ اللّه واعدِلْ بين القوم!» فاستشاط النبيُّ غَضَباً وصَاحَ بذي الخُوَيْصِرَة: «وَيْحَكَ! إن لم يكن العدلُ مِنّي فَمِمَّن يكون؟». وأكْمَلَ النبيُّ الحديثَ المشهورَ المنسوبَ إليه: «سيخرُجُ من ضيضىء هذا الرجل قومٌ يَمرقون من الدّين كَمَا يمرُقُ السَّهْمُ مِن الرَّمِيَّة».

واستناداً إلى العديد من المُؤَرِّخين كابن الجَوْزي، والعديد من «كُتّابِ الفِرَق» كالمَلَطِي، فإنّ ذا الخُوَيْصِرَة أو حرقوصاً بن زهير كانَ أوّلَ خارِجيّ في الإسلام.

سنبحثُ لاحقاً فيما إذا كان هذا الحديث مِمّا رُوِيَ عن النبيّ بالفِعْلِ، أو أنّه قد (نُحِلَ) على ألسنة أعداءِ الخوارج. إلاّ أنّ ممّا يستوجب التوقف عنده الآن الحقائقُ التالية:

١ ـ الحقيقة الأولى تتمثّلُ في النظرةِ المُعَادِيَةِ لعقِيدَةِ الخوارِج. وفي هذا المجال فإنّ كِلا الفريقَيْن: السُّنّة والشّيعَة، يتّفِقُ على أنّ الخوارج لم يفهموا جوهَرَ الرّسالةِ الإسْلاميّة. إنّ الخوارِج، في رأي هؤلاء، فرقةٌ متشَدّدةٌ مُتطرّفةٌ في تأْويلِها الإسلامَ إلى حدّ أنّها تُقْصي النبيَّ نفسَهُ عَنْه ـ وهو موقفٌ يحتاجُ مع نقيضِهِ، إلى جدالٍ لَيس هنا مجالُه.

٢ ـ الحقيقةُ الثانية تكمن في أنّ ذلك الخارجيّ حرقوصاً كان من جملة الثائرين على الخليفةِ الراشدي الثالث عُثْمان بن عَفّان. كما أنّه صارَ واحداً من الرموزِ الأساسيّةِ التي عَارضت قرار عليّ بالتحكيم في معركة صفّين. زِدْ على ذلك أنّ حرقوصاً هذا ـ استناداً إلى المصادر ـ كانَ واحداً من اثنَيْن قَادا الجنودَ و «القُرّاءَ» الذين انْسحَبوا من جَيْشِ عليّ بعد صفّين وانتَبَذوا ناحيةً يُقَالُ لها النَّهْرَوان، حيثُ قُتِلَ في معركة كُبرى دارت رحاها بين «المُحَكِّمَة الأوائِل» وجيش عليّ بن أبي طالِب.

٣ ـ الحقيقةُ الثالثة التي نستَشِفها من حادثة حرقوص مع النبيّ هي أنّ حرقوصاً ينتمي إلى قبيلةِ تميم، وهي قبيلَةٌ وفَّرَتْ لحركةِ الخوارجِ ـ وبخاصةٍ لجَناحِها الأشَدّ تطرّفاً والذي عُرِفَ فيما بعدُ بالأزارِقَةِ ـ معيناً لا ينضبُ من المُحاربين والقادة المميّزين كنافِعِ بن الأزْرَقِ وقَطريّ بن الفُجَاءَة وعُبَيْدة بن هلال اليَشْكُريّ.

٤ ـ الحقيقةُ الرابعة والأخيرة التي تخبرنا إيّاها الحادثةُ

(*) تعريب الورقة التي ألقاها المحاضر بالإنكليزية في مؤتمر دارسي الشرق الأوسط MESA الذي عُقِدَ في مدينة بوسطن بالولايات المتحدة الأميركية في أواخر السنة الماضية.

المذكورة وتُساعدنا لاحقاً على دراسةِ حركةِ الخوارج تتمثَّل في أنّ حرقوصاً هذا قد أُتيَ على ذكره مرةً واحدةً على الأقلّ في الشّعرِ الخارجي. فها هو ابنُ سَهْمٍ المُرادِيّ يتطلّع في إحدى قصائِدِه[1] بعَيْنِ الشَّوْقِ إلى الشَّهادةِ كَيْمَا يُلاقي المؤمنِينَ الأُقْحَاحَ أَمْثالَ حرقوصٍ ومِرْداس.

وإنَّما تَهدفُ وَرَقتي هَذه إلى محاولة تبيان كَيْفَ أنّ حركةَ الخوارج، حتى تاريخ موت قَطَري سنة ٧٧ هـ، وَعَتْ ذاتَها كنموذجٍ معارَضةٍ من داخِلِ الأُطُرِ الإسلاميّة، وتبيان نسبة نجاح هذه الحركة في تَجسيدِ هذا الوعي بالذات على أرضِ الواقع. غَيْرَ أنّي أَوَدُّ قبلَ الشروع في هذه المحاولة أن أُحدِّد مصاعِبَ أساسيّة تعترضُ سبيلَ أيِّ باحثٍ في العقيدَةِ والتطبيق الخارجيّيْن.

أمّا المشكلةُ الأولى فَتَتعلّقُ بالمصادر الحيَّةِ التي وَصَلَتْنا، والتي تكادُ أن تَنْبع من شَتّى المشارِبِ والايديولوجيّات باستثناءِ تلك التي تمتّ بأي صلة للخوارج أَنْفُسِهم!. على أنّ إدراك هذه المشكلة لا يُقَلِّلُ إطلاقاً من أهميّة هذه المصادر ومن حقيقة أنّها لازمة لدراسةِ الخوارج. فمجرّد أن تكون هذه المصادر غير قابلةٍ للاستعاضَةِ عنها (بأُخريات) يَحْكُمُ إلى حدٍ بعيد العلاقة بينها وبين الباحث، وهي علاقةٌ تكادُ أن تكون أحاديّةَ الجانِب. أضِف إلى ذلك أنّ هذه المصادر تَتَضمّنُ ـ فيما تَتَضَمّن ـ الأدَبَ الخارجيّ، وهو «التاريخ» الوحيد ـ إذا جازَ لي التعبير ـ الذي كتبه الخوارج انفُسُهم ليُعبّروا عن حقيقتهم هم.

إلا أنّ ذلكَ الأدب (وَهُنَا انتَقِلُ إلى المُشكلةِ الثانية) قَلِيلٌ. فالحَالُ أنّ المصادِر لا توفّر لنا إلاّ شعرَ أربعةٍ وخمسين شاعراً معلوماً على امتدادِ تلكَ الفترة (أي حتى سنة ٧٧ هـ)، بينهم تسعةٌ وعشرون شاعراً لم يكتبوا سوى قصيدةٍ واحدة.. بل إنّ بعض هذه القصائد لا يتجاوز البَيْتَ الواحِد! زِدْ على ذلك أنّ المرءَ يعتريه الشكّ حول نسبة بعض هذا الشعر للخوارج، لا سيّما ذاك الذي يُبالغُ في مقدرَةِ المُهَلّب بن أبي صُفْرَة (عدوّ الخوارج اللّدود) إلى حد إبراز تفوّقه، وهو أمرٌ يتجاوز ما نعرفه من شعرِ «المُنْصِفات». بالإضافة إلى ذلك كُلّه، فإنّ شعر الخوارج بشكلٍ عام أكثرُ عنايةً بتصويرِ حياتِهم الحربيَّة وتَفانيهم في القِتال مِنْه بِرَسْمِ الموقفِ الايديولوجي الذي اتّخذوه بخصوص مسائل جوهريّة كالخِلافَةِ ونحوها. وإذا حَوَّلنا أَنْظَارنا شَطْرَ النَّثْرِ الخارجي، فإنْ الخُطَبَ والرَّسائِلَ التي كتبوها خلال تلك الفترة تخطّ معالِمَ وعيهم بالذات على نحوٍ أشدّ وضوحاً، ومردُّ ذلك على الأرجح إلى الأسلوب النثري الذي هو أكثر تَأهيلاً للتعبير عن الجدالِ الايديولوجي من الأسلوبِ الشعري. ولكن الخُطَبَ والرَّسَائِلَ، بدَوْرِها وخلافاً لتوقّعاتِ أيِّ باحث، قليلَةٌ هي الأخرى ومُنصَبَّةٌ على الخطط والأوامِرِ العسكريَّة.

على أنّ ما سبقَ لنا أن ذكرناه حول الأخبار التاريخيّة المبعثرَةِ في المصادِر (المعاديَةِ للخوارج) يفرضُ شيئاً من نفسِه على أدبِ الخوارج. فإذا كانَ الأدبُ انْعِكَاساً للأديب (وهي نظريّة قديمَةٌ، وباهِتَةٌ، لأنّها لا تأخذ بعين الاعتبار قضايا أساسيّة لا مجالَ لشرحها الآن) فإنّ شعرَ الخوارج وخطبهم ورسائِلهم تبقى مصدراً لا غنى عنه لدراسةِ حركتهم التاريخيّة والاجتماعيَّة.

* * *

لِنَعُدْ إلى حادثة حُرقوص (وأنا أعلم ما يُسبّبه هذا الاسم من غَيْظٍ عند البعض من أعداءِ الخوارج ومُحبّيهم على حدّ سواء!). استناداً إلى بعض أعداء حركة الخوارج، فإنّ هذه الحادثة تُمثِّلُ لهم دليلاً قاطِعاً على أنّ الخوارج لم ينطلقوا بعد حادثة صفّين بل قبل ذلك بكثير. لقد عبّر حرقوص، في الحقيقةِ، عن مبدأ أساسي لِمن سَيُصبحون في المستقبل خوارجَ، ألاَ وهو المبدأ القائل بأنّ الخلافة الحقّة يجب أن ترتكزَ إلى العَدْلِ الاجتماعيّ والاقتصاديّ. وفي رأيي أن «اصطناع» أعداء الخوارج يكمن في محاولة هؤلاء «الأعداء» تطبيق (أو «سَحْب») مبدأ الخوارج ذاكَ على النبيّ نفسِهِ، بالرغمّ من أنّ الخوارج قد نسبوا، في غيرِ مرّة، العدالة والتّقى إلى النبيّ. فها هو عَبيْدَة بن هلال القائد والشاعر الأزْرقي يصرّح[2]:

ولـكن نَقـولُ: الحُـكْمُ للّـهِ وَحْدَهُ
وباللّـهِ نَرْضَـى والنَّبـيِّ المُقَرَّبِ

وها هو عِمْران بن حطّان يؤكِّدُ[2]:

(١) شعرُ الخوارج، جمعه وَقَدَّمَ له د. إحسان عبّاس، دار الثقافة: صفحة ٦٢.

(١) شعر الخوارج: ٩٤.
(٢) المصدر السابق: ١٧٢.

وكَذاكَ دينٌ غيرُ دينِ مُحَمَّدٍ
فـي أَهْلِـهِ حَرَجٌ وضيقُ صُدورِ

كذلك يفعلُ شاعرٌ خارجي ثالثٌ[1] إذ يجزم:

أَضْرِبُ بالسَّيْفِ على حُكمِ النَّبي

وفي الحقيقة، فإنّ الخوارج مُجمعون على أنّ القِيَادة المسلمة المُثلى قد تمثّلَها كلٌّ من النبيّ والخليفتين الراشديْن الأوّليْن. لكنَّ المشاكل ابتدأت مع عثمان، وتحديداً في النّصف الثاني من خلافته. يقول عبيدة بن هِلال[2]:

«استَخْلَفَ النَّاسُ أبا بَكْرٍ، واستَخْلَفَ أبو بكرٍ عمرَ؛ فأبو بكرٍ وعمرٍ كلاهما عملَ بالكِتَابِ وسُنَّةِ رسولِ اللّه. ثمَّ إن الناسَ استخلفوا عثمان، فحَمَى الاحماءَ وآثَرَ القُربى واستعمَلَ الغيَّ وَرَفعَ الدّرة ووضعَ السّوْط وَمَزَّقَ الكِتَابَ وحقرَ المُسلِمَ وضربَ منكري الجور وآوى طريدَ رسول الله[3] وضَربَ السابقينَ بالفَضْلِ وسَيَّرهم وحَرَمهم[4]. ثم أخذَ فيْءَ اللّه الذي أفاءَهُ عَليهم فَقَسَّمه بين فُسَّاقِ قريشٍ ومُجّان العَرَبِ».

وقد ركّز الخوارج استناداً إلى المبدأيْن القرآنيّين ﴿الأمرْ بالمعروفِ والنّهيُ عن المُنْكَرِ﴾ و ﴿إنَّ أكْرَمَكُم عندَ اللّهِ أتْقَاكُم﴾، على فَداحَةِ الخَطأ الذي ارتكَبَه أولئكَ الذين حَصروا الخلافة في قريش. فكانوا (أي الخوارج) يؤكّدون أنّ النبيّ نفسه قد حَذَّرَ القَوْمَ من القَبليّةِ إذْ قال في خطبةِ الوداع: «يا أيُّها النّاسُ إنّ الهكم واحدٌ وأباكم واحدٌ. كُلّكم لآدم وآدم من تراب... لا فضلَ لعربيّ على أعجميّ إلاّ بالتقوى».

والحقيقةُ أنّ الخوارج (أو الشُّراة) لم يعبّروا على وجهِ الاجمال عن عداوةٍ لقريش في حدّ ذاتها: فَعلى سبيل المثال نذكُرُ أنّهم أجابوا رسولَ عليّ إلى النّهروان بقولهم: «لَسْنا نُتابعُكُم أو تأتونا بمِثْلِ عُمرَ». وهنا ينبغي القول إنّ عمر كانَ قد كرّسَ مبدأ «السّابقَةِ في الإسلام» الذي وصفه مارتين هيندز Martin Hinds بأنّه المبدأ الأساسي الذي استنَدَ إليه التنظيمُ الاجتماعي آنذاك ووفّرَ وحدةً كُلّيةً لمجتمعٍ يتضمّنُ أنْساقاً متغيّرة

(١) هو الخيْبريُّ. المصدر السّابق: ٢٠٥.
(٢) تاريخ الطبري، سنة ٦٣.
(٣) في إشارة إلى مروان بن الحَكَم.
(٤) في إشارة إلى أبي ذَرّ الغفاري وغيْره.

«من التحالفات بين العشائر ومجموعاتِ العشائر». على أنّ الباحثَ لا يفوته أن يُلاحظ أنّ الأدبَ الخارجي لا يخلو من عباراتٍ تُفِيدُ بأنّ مفهومَ الخوارج للعدالة لم يكن إسلامياً فَحَسبُ، بل كان ممزوجاً بشيء من الروح القبليّةِ والميول المعادية لِقُرَيْش. ففي حين نسمعُ عيسى بن فاتك يجزم بأنّ لا أبَ له سوى الإسلام[1]:

أبـي الإسـلامُ لا أبَ لي سواهُ
إذا فخـروا بِبَـكرٍ أو تَمِيمِ

نَرَى عِتبانَ يُنشد قائلاً[2]:

فـلا ضَيْرَ إنْ كانـتْ قريش عِداً لنا
يصِيبـون مِنّـا مَرَّةً ونُصِيبُ

وشَبْيلاً يُصَرّحُ متفاخِراً[3]:

أَلَـمْ تَرَ أنَّ اللّـهَ أنْـزَلَ نَصرَهُ
وَصَلَّـتْ قريشٌ خَلْفَ بَكْرِ بـنِ وائِلِ

حتى قطري بن الفجاءة، القائد الأزرقي الشهير، يُنادي على أعدائه بأسماءِ قبائلهم، واحدةً بعد الأخرى، كأنّ الأعداء ليسوا كفّاراً وحسبُ وإنّما هم كُفّارٌ ينتمون إلى قبائلَ مُحَدَّدةٍ[4]. وقبله يقول نافع بن الأزرق في قصيدته الوحيدة التي وصلتنا إنّ قتلَ مسعود هو انتقامُ تميم من الأزْد[5]!.

وحقيقة الأمر أنّ غالبيّة القُرّاء الذين شكّلوا الثقل الأساسي في حركةِ الخوارج بعد التحكيم، كانوا ينتمون إلى أصولٍ قبليّة، لا سيّما إلى بكرٍ وتميم. فتميم، على سبيلِ المثال، لم تَسْتَسغ أن يستولي فرعٌ من قريش على السّلطة ويحجبها عنها وهي (أي تميم) من هي بين قبائلِ مُضَر! على أنّ التوسُّع في هذا المجال لَيْس من أهدافِ هذه الورقة القصيرة. يكفي القول إنّ ما قد يبدو تلازماً ظاهراً بَيْنَ الإسلام والقبليّة في تكوين مبدأ الخوارج في العدالة لا يُقلّل قَيد أنملةٍ من تفانيهم الرائع في الإسلام. فمن

(١) شعر الخوارج: ٥٨.
(٢) المصدر السابق: ١٨٢ - ١٨٣.
(٣) المصدر السابق: ٢٠٨.
(٤) القلماوي، سُهَيْر: أدب الخوارج في العصر الأموي. مطبعة المعارف، القاهرة.
(٥) شعر الخوارج: ٦٨ - ٦٩.

جهةٍ أولى، نُلاَحِظُ أنّ النزعةَ القبليّة لم تكن حِكْراً على الخوارج وحدهم، بل إنّ تلك النزعة تكادُ تكون أشد بروزاً في أدب أعدائهم (الشيعة أو الأمويين). ومن جهةٍ ثانية، فإنّ مبدأ الإسلام في المساواةِ الاجتماعيّة قد كانَ له تأثيرٌ أعظمُ في تكوين الفِكر الخارجي من النزعات القبليّة.

* * *

منذ وقعة صفّين والخوارجُ يتفاخرون أمامَ أعدائهم بأنّهم قد أدركوا التأويل الوحيد الصحيح للإسلام. وهذا هو السبب في رفضِهم إيقافَ الحرب ضدّ جيش معاوية في صفّين. فالله ـ على حدّ تعبير أحدهم لرسول عليّ ـ قد حرَّم السِّلْمَ بينَ المُسلمين «وأهلِ الحَرْب» مُذ نزلت على النبيّ آيةُ البراءة تستثني من أهل الحرب دافعي الجزْيَة. وقد أقرَّ الخوارج بأنّه «قد كانَتْ مِنْهم زلّةٌ حين رضُوا بالحكمين (أبي موسى وابن العاص)»[1] وأنّهم على استعدادٍ للتكفير عن خطأهم، وهم يُطالِبون علياً بالمِثْلِ قبل أن يستطيعوا التّسليمَ له بالخِلاَفة. لقد اعتقد هؤلاء أنّ علياً قد كَفَر إذ قبل التحكيم، فما كانَ مِنهم إلاّ أن اجتمعوا لتدارس الموقف. وهنا يطلُّ من جديد وجهُ صاحِبنا حرقوص وهو يقول: «إنّ المتاعَ بهذِه الدُّنيا قَليلٌ، وإنَّ الفِراقَ لهَا وشيكٌ، فلا تَدْعونَّكم زينتُهَا وبهجَتُها إلى المُقامِ بها ولا تُلفتنّكُم عن طَلَبِ الحقّ وإنْكَارِ الظُّلْمِ»[2].

وشعَرَ المجتمعون بحاجةٍ قُصوى إلى «تنظيم» يتضمّنُ العناصِرَ التالية، وهي[3]:

١ ـ الوليّ، تعتمدُ عليه أمّة المسلمين وبه تلوذُ ـ «وليٌّ، يكونُ عِماداً وسِنَاداً».

٢ ـ الرَّايَةُ، «يحفُّ بها الشُّراةُ ويرجعُونَ إليْها».

٣ ـ نقطة انطلاقٍ لأعمالِهم القادمة، تكون في الوقت نفسِهِ دارَ هِجْرَةٍ يحجُّ إليْها المؤمنون من كُلِّ حدبٍ وصَوْبٍ، كَمَا حَجّ الرسول من دار الكفرِ إلى دارِ الإسلام. على أنّ الخوارج لن يقفوا في هذه الأثناء مكتوفي الأيدي بانتظار الحُجّاجِ الجُدُدِ، بل سَيَنْظّمون «حروبَ عِصَابات» استنزافِيَّةٍ ضدّ دار الكُفر بهدفِ تحويلِها إلى دارِ إسلامٍ[4].

* * *

وكانَ أن تصَلَّبَ الموقف الخارجي نتيجة الأحداث التي أعقبت صفّين. فمعركة النهروان التي قُتِلَ فيها آلافُ الخوارج على أيدي جيش علي إنّما صارت ترمز للخوارجِ الجُدد بما رمزت إليه كربلاء بالنسبة للشيعةِ الجدد. بعد هذه المعركة باتَ المرءُ يشهدُ القادة الخارجيّين يُذكّرون أتْبَاعهم «بالسَّلفِ الصَّالِح»، بل إنّ تياراً عارماً من الإحساسِ بالذّنب تنامى لدى الخوارجِ الجدد لأنّهم تخلّفوا عن نجدة إخوانهم في تلك المعركة وما تلاها من المعارك الأولى ورغبةً صلبةً في ضرورةِ التكفير عن خطيئتهم وانتهاج السبيل الذي نهجه السلف الصّالِح. إنّ مبدأ السلف الصّالح (وما أعقَبَهُ من شعورِ الذنب والرغبة في التكفير) لم يوفّر لحركة الخوارج «رموزاً» للثورةِ على الظُّلمِ فَحَسبُ (وهذا أمرٌ ذو شأنٍ في حدّ ذاتِهِ)، بل سَاعَدَ على تطوير خططِهم المستقبليّة.

لقد بدا لهم العدد غيرَ ذي قيمَةٍ؛ فها هو أبو بلال مرداس، على رأسِ أربعينَ من «الشُّراةِ»، يهزمون ألفيْن من «الكُفّار» في موقعةِ آسَكَ[5]. كما أنّ تلكَ المعركة أثبَتَتْ للأزارقة على نحوٍ لا يقبَلُ الشكَّ «سِلميَّة» أبي بلال وعدم أهليَّتِها لتحويل حروب الخوارجِ إلى نصرٍ مبين: فأبو بلال لم يجمَع الخَرَاجَ من النّاس حينما «خَرَجَ» من البصرةِ باتجاهِ «دار الإسلام» في الأهواز؛ فضلاً عن أنّه لم يُمَارِسِ «الاستعراضَ» (وهو قَتْلُ أزواجِ الكُفّار واولادهم في دار الكُفر). إنّ تكتيكاً جديداً يفرضُ نفسَه على الخوارج إن هم عَزَموا على النّصر؛ هذا ما اعتقده نافعُ بن الأزرق زعيمُ الخوارج الجديد. وقد شدَّد هذا التكتيك على كونِ سُكّان المِصْرِ، بمن في ذلك الأطفال، لا يقلّونَ كُفراً عن حَاكِم ذلك المِصْرِ عَيْنِه، وبالتالي فإنّه من الحَلال مُصَادرةُ

(١) نصر ابنُ مُزاحِم المِنْقَريّ: وقعة صفّين: ٥١٣.
(٢) الطّبري: تاريخ الطبري، صفحة ٣٣٦٣ من طبعة De Geoje.
(٣) المصدر السابق.

(٤) أنظر رضوان السيّد: مفاهيم الجماعات في الإسلام، دار التنوير، بيروت.
(٥) وفي ذلك يقول عيسى بن فَاتك:

أألفا مُؤْمِنٍ فيما زَعَمتُم ... ويهزِمُهمْ بآسَكَ أربعونا
كذبتُم ليْس ذاكَ كما زعمتُمْ ... ولكنَّ الخوارجَ مؤمنونا!

(شعر الخوارج: ٥٤)

أموالهم وقَتْلِ أطفالهم. ومِمّا شَحَذَ من موقف نَافِعٍ في أعين أتباعِهِ أنّ سكّان البَصْرَة عاونوا القيادَة الزُّبَيْرِيَّةَ في الهجومِ عَليهم. غير أنّه كان على نَافع أن يلجأ إلى القرآن ليدعَمَ حجتَه/ تكتيكه لا سيّما في شقّها المُتَعلّق بالأطفال، أي في أن أطفالَ الكفّار هم كُفّارٌ بالقُوّة:

﴿ رَبِّ لا تَذَرْ على الأَرْضِ من الكافرينَ دَيّاراً، إنَّكَ إنْ تَذَرْهُمْ يُضِلّوا عِبَادَك، ولا يَلِدُوا إلاّ فَاجِراً كَفّاراً ﴾[1].

* * *

إنّ انبثَاقَ فكر الأزْرَقي قد أذّنَ بنهاية الخوارج كحركةٍ سياسيَّةٍ عسكريَّة. وقد يبدو هذا الأمرُ غريباً بعضَ الشيء: فمن المعلوم أنّ حركة الخوارِج، بقيادة نَافع، قد أتاحت لأتباعها سيطرة مؤقّتةً على كِرمان، وفارس، وغيرهما من المناطقِ الشرقيَّة، وهدّدت تهديداً خطيراً البَصْرة لعشراتِ السّنين. ولكن على الرغم من ذلك، فإنّ نَافِعاً عَيْنه هو الذي عَجَّلَ في ظاهِرَةِ الانشقاق داخِلَ الحركةِ الخارجيَّة، من خِلال تأويله لبعض الآياتِ القُرآنيَّة. هُنا أيضاً يبدو من الأهميّة بمكان ملاحظةُ أنّ جميع الفِرَقِ الخارجيَّة لجأت إلَى القرآن والحديث بحثاً عن المبرّر الديني لفِكر كُلٍ منها. لقد سبق لنا أن رأينا تبرير نَافع «القُرآني» لظاهِرَةِ الاستعراض. في مواجهةِ هذا التبرير «المزعوم»، ينتَصِب نجدة بنُ عامرٍ وهو زعيم فرقةٍ أُخرى من فِرق الخوارج، ليؤكّد لنافع أنّ قَتْلَ الأطفالِ والنّساء محرَّم بدليل قول الله:

﴿ ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾[2] و ﴿ لَيْسَ على الضُّعَفَاءِ ولا عَلَى المَرْضَى ولا على الذينَ لا يجِدونَ ما يُنْفِقون حَرَجٌ إذا نصحوا لِلّهِ ورسوله ﴾[3].

وفي حين كان نَافع يُشدّد على أنّ الجهادَ فرضٌ والتَّقِيَّةَ حرامٌ مُسْتَنِداً إلى الآياتِ التاليةِ:

﴿ إنَّ الذين يكتُمونَ ما أَنْزَلْنا مِن البيِّنَاتِ والهُدَى مِن بَعْدِ ما بَيَّنّاهُ للنَّاسِ في الكِتَابِ، أولئكَ يَلعَنُهم اللّهُ ويلعنُهم اللاعِنون ﴾[4]. و ﴿ يُجاهِدُونَ فِي سبيلِ اللّهِ ولا يَخَافُونَ لَومَةَ لائِمٍ ﴾[1]. كانَ نجدة يُصِرّ على أنّ التقيَّةَ و «القعودَ» جائِزان في الإسلام: ﴿ إلاّ أن تَتّقوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾[2] و ﴿ وَفَضّلَ اللّهُ المُجَاهِدِينَ على القَاعِدِين أجْراً عظيماً ﴾[3].

فيعودُ نافع ليُبيّن لنجدة ولاتباعِهِ أنّ القعود قد كان في وقتٍ من الأوقات جَائزاً، وذلك حين «قُهِرَ» النبيُّ وصحابَتُه. أمّا في غير هذه الحَال، فإنّ القُرآنَ ـ في رأي نافع ـ واضِحٌ لجهةِ تكفير القَعَدَة: ﴿ وقَعَدَ الذين كَذَبوا الله ورَسُولَه ﴾[4].

* * *

هذه الخلافات الايديولوجيَّة داخِلَ حركة الخوارج أعاقت تجسيدَ «النموذج» الخارجي على أرضِ الواقع وعَجّلت بالتالي في حفر قبرٍ لهذه الحركةِ. فقد تمزّقت حركتهم وتشعّبت إلى أربع فرقٍ عريضة هي الأزارقة والصّفريّة والنَّجديَّةُ والإباضيَّة. ولم يكتفِ الخوارج بما جنوه على أنفسهم (ولم يجنِه أحدٌ عليهم) حين انشقّوا على بعضِهم بعضاً، بل أغرقوا في الصّراعِ حول مسائِل غير أساسيّة بل تافهة على نحوِ ما عَبّر أحد شعرائهم بقولِهِ[5]:

قُلْ للمُحِلّينَ قد قَرّتْ عيونُكُم
بِفُرْقَةِ القومِ والبغضاءِ والهَرَبِ
كُنّا أناساً على دينٍ ففَرّقَنا
قَرْعَ الكَلامِ وخلطُ الجِدِّ باللَّعِبِ
ما كَانَ أغْنَى رِجالاً ضَلَّ سَعْيُهُم
عن الجِدَال وأغْنَاهُم عن الخُطَبِ!

أما السَّببُ الثالِثُ في رأيي لِفَشلِ النموذَجِ الخارجي، فإنّه يكمن في خيانتهم لبعضِ مبادئِهم الأساسيَّة. وتتجلّى مظاهر هذه «الخيانة» في حوادث عدّة: فمثلاً حين اندلعت حربُ تميمٍ والأزد في البصرة سنة ٦٥ ـ ٦٦ هـ، وجدنا خوارجَ تميمٍ يُناصِرون قبيلَتهم في حربها ضِدَّ الأزْد! كما وجدنا، لاحقاً، بعضَ «المجاهدين» (أي اللاقاعدين) من الأزارقةِ «يهربون» فجأةً من ميدان الوَغى، على نحو ما اتُّهم قطريّ نفسه بذلك.

---

(١) سورة نوح: ٢٦.
(٢) سورة الأنعام: ١٦٤.
(٣) سورة التوبة: ٩١.
(٤) سورة البقرة: ١٥٩.

(١) سورة المائدة: ٥٤.
(٢) سورة النّساء: ٩٥.
(٣) سورة آل عمران: ٢٨.
(٤) سورة التوبة: ٩٠.
(٥) هو زيْد بنُ جندب (الأزرقي). شعر الخوارج: ١٢٩ ـ ١٣٠.

وأخيراً وليس آخراً بتنا نسمَعُ بعض الخوارج يهزأون من امرأةٍ عَرَبيَّةٍ لأنَّها تَزَوَّجت مولى من الموالي (أي مُسلماً من أصلٍ غيرِ عَرَبيّ).

نتيجَةً لهذه الأسباب ولغيرها مِمّا يضيقُ عنه مجالُ بحثي، سَادَ الشقاقُ مُعَسكَرَ قطريِّ بن الفُجَاءَة، بين العربِ والموالي من جهة، وبين العربِ أنفسهم. وفي هذه الأثناء، لم يجد المُهلّب بن أبي صُفرة مُتْعةً أشدَّ من أن يُراقِب خصومَه الألدّاء يقتتلون، قبل أن يحمل عليهم حملة لم تخلّف منهم ولم تَذَر!

المصَادر:

(١) ابن هشام: سيرة رسول الله. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٣٧.

(٢) البغدادي، عبد القاهر: الفرقُ بينَ الفِرَق. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. مصر، ١٩٦٤.

(٣) البلاذُري، أحمد بن يحيى: فتوح البلدان. تحقيق De Geoje، ليدن، ١٩٢٣.

(٤) البلاذُري، أحمد بن يحيى: أنْسابُ الأشْراف. الجامعة العبريّة، القدس، ١٩٣٦ - ١٩٤٠.

(٥) الدّوري، عبد العزيز: «الديموقراطيّة في فلسفة الحُكم العربي». المستقبل العربي ٩ (١٩٧٩): ٦٠.

(٦) الدينوريّ، أبو حَنِيفَة: الأخبارُ الطّوال. تحقيق V. Georgias، ليدن، ١٨٨٨.

(٧) الشهرستاني، محمد: كتابُ المِلَل والنِّحَل. تحقيق W. Cureton، لندن، ١٨٤٦.

(٨) عبّاس، إحسان: شعر الخوارج. دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٤ (الطبعة الثالثة).

(٩) القاضي، النُّعمَان: الفِرَقُ الإسلاميّة في الشعر الأموي. دار المعارف، مصر.

(١٠) القلماوي، سُهَيْر: أدب الخوارج في العصرِ الأموي. مطبعة المعارف، القاهرة، ١٩٤٣.

(١١) معروف، نايف محمود: الخوارجُ في العصر الأموي. دار الطليعة، بيروت.

(١٢) المَلطي، محمد ابن أحمد: التَّنبيهُ والرَّدُ على أهلِ الأهواءِ والبِدَع. قدم له وعَلَّقَ عليه: مُحَمّد زهد بن الحسن الكوثري، بغداد، ١٩٦٨.

(١٣) **Encyclopeadia of Islam** («Qatari»; «Kharijites», «Nafi»»,...).

دار الآداب تقدم

الدكتور أحمد علبي

طه حسين

رجلٌ وفكرٌ وعصرٌ